وصف تريتشكي

كتب المستر وليم هربت دوسن احد تلامذة تريتشكي مقالة عنهُ في مجلة القرن التاسع عشر اقتطفنا منها ما يلي لانهُ جاء مؤيداً لما كتبناهُ عنهُ في مقتطف دسمبر الماضي قال

كان تريتشكي طويل القامة كبير الهامة كأن القوة التي تادى بها تجسَّمت فيهِ ولا ازال اراهُ بعين الذاكرة حتى الآن كما كنت اراهُ في برلين منذ خمس وعشرين سنة وانا اسمع خطبهُ لاسيما وانهُ كان يجلسني امامهُ قريباً منهُ . كان مهيب الطلعة قوي البنية كبير الرأس غزير الشعر اسودهُ عيناهُ براقتان حديدتا البصر تراهُ عنوان القوة والجبروت في جسمهِ ونفسهِ وكلامهِ . اذا رأيتهُ ولم تسمع كلامهُ حسبتهُ من قواد الجيش فانهُ من اسرة حربية ومنها جنرال في الحرب الحاضرة . كان ابوهُ يود انهُ ينتظم في سلك الجيش لكنهُ حُرم من ذلك بما اصابهُ من العمى في عيناهُ

اخذ ينادي بوجوب الاتحاد الالماني وهو في بلادهِ مكسوليا وبأن السيادة يجب ان تكون لبروسيا اكبر ممالك المانيا واقواها . وكأن المانيا كانت في انتظار رجل مثلهِ لاجل وحدتها كما كانت في انتظار رجل مثل بسمارك فقضى عمرهُ ولا شاغل يشغلهُ ولا غرض يرمي اليهِ الاَّ تفوُّق بروسيا ووحدة المانيا

كان المؤرخ رنكي يقول ان شأنهُ كمؤرخ يقوم بان يقرر الحق المجرد الخالي من تزاويق الخيال . ويقال انهُ رضي ان يكون مؤرخ الدولة البروسيانية على كره منهُ حاسباً ان هذا المنصب قد يضطرهُ الى الجري على غير ما يوحيهِ اليهِ علمهُ وضميرهُ . اما تريتشكي فلم يستنكف من ان يكون مؤرخ الدولة والعامل على مرضاتها لما حلَّ محل رنكي . وامتاز في انهُ جمع بين التاريخ والفلسفة السياسية وطبع المئين بطابع الحكومة البروسيانية وبنى آراءهُ العليَّة على اعمالها وجعل بروسيا واسطة عقد التاريخ الالماني والغرض الذي يصوغهُ . ويمكن ان يقال انهُ عبَّر عن الحكومة بلفظة واحدة وهي القوَّة . فانهُ كان يقول ان القوة تحكم العالم في الوقت الحاضر وهي التي حكمتهُ في الماضي وستحكمهُ في المستقبل . وقد نجح في ترسيخ هذا المبدإ في الاذهان نظرياً كما نجح بسمارك في اثباتهِ عملياً

ومن الغريب ان تريتشكي غار هذه الغيرة على بروسيا وهو ليس من اهلها ولا من الالمان بل اصلهُ من السلاف لكنهُ انكر جنسيتهُ واندفع بكليتهِ الى تعزيز شأن المانيا عموماً

وبروسيا خصوصاً وكان يقول ان بروسيا اقوى ممالك المانيا واسماها عقلاً واشرفها نفساً

لما توفي رنكي لم ينازع احد في ان تريتشكي اولى كل مؤرخي الالمان بالقيام مقامهُ ما عدا مومسن لان لمومسن مقاماً خاصاً لا ينازع فيهِ فاجمع المؤرخون كلهم على احلال تريتشكي في هذا المحل عن طيب نفس فظل ثلاثين سنة وهو يملي تاريخ المانيا ويحلهُ المحل الارفع من تاريخ اوربا ويوشي تاريخ بروسيا ويحلهُ المحل الاسمى في تاريخ المانيا . وقد فصل ذلك بهمةٍ لا تعرف الملل بما الفهُ من الكتب ونشرهُ من المقالات والقاهُ من الخطب في جامعة برلين لكن الشيء الذي امتاز بهِ هو الذي يعاب عليهِ لانهُ تعرَّض لهُ تعرُّضاً اعمى يعاب على كل مؤرخ فاذا قوبل تاريخهُ بتاريخ نيبهر او رنكي ظهر عيبهُ لدى المنصف من غير الالمان اما الالمان فزادهم ذلك اعجاباً بهِ

وتحزبهُ للمانيا والالمان اظهر في خطبهِ منهُ في كتبهِ فلا تخلو خطبة منها من الطعن على هذه الدولة او تلك لانها لا تقدر المانيا قدرها او لانها تقف في طريقها . وكانت سهام طعنهِ موجهة خصوصاً الى روسيا وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة واكثرها الى انكلترا وفرنسا ولقد كان متطرفاً في آرائهِ وعباراتهِ فاذا ذم بالغ في الذم بعبارات موجعة واقوال لا علاقة لها بالتاريخ وفلسفتهِ ولكن ساميهِ يرون جلياً انهُ يعبّر عمّا في نفسهِ ويجاهر بما في ضميرهِ فلا يستاؤون منهُ ولو لم يجدوا في كلامهِ مقنعاً لهم او شيئاً يشكرونهُ عليهِ . والظاهر ان غلوهُ في مدح المانيا والاعجاب بها كان نتيجة لازمة عن الضعة والمسكنة اللتين كان الالمان يشعرون بهما قبل ذلك فتطرَّف في هذه الجهة ليزيل التطرُّف في الجهة الاخرى ولو من اذعان غير الالمان

وكان كلامهُ عن انكلترا في اخريات ايامهِ اقل توددًا منهُ في أولياتها كأنهُ حدث حادث صرفهُ عن الصداقة الى العداوة ثم زادت عداوتهُ رويداً رويداً فصار يصف الانكليز في خطبهِ الاخيرة كقوم شرعيي الاخلاق . حتى الكنيسة الانكليزية لم تسلم من طعنهِ فقال انها تبيع كل وظائفها للاغنياء وان قسوسها يملّون العامة ان يشخوا من طريق اخاصة وكان يعتقد ان عقل الانكليز مشحون بالرياء وحياتهم قائمة على الاوهام . ومن اقوالهِ التي كتبتها في مذكراتي ان الالماني لا يستطيع ان يعيش بين الانكليز لانهم كلهم تصنُّع ورياء ودعوى فارغة وهذا ما لا نستطيع عليهِ صبراً . وهم يدَّعون انهم ارقى الامم اخلاقاً ولكنهم ليسوا كذلك لحسن الحظ

ولفصاحة تريتشكي وذلاقة لسانهِ شأن كبير في اقناع ساميهِ بآرائهِ السياسية لان الفصاحة تقوي الشبان اكثر من بث الحقائق . وبلاغة تريتشكي ظاهرة في كتبهِ ولكنها

ليست شيئاً في جنب الفصاحة التي كان يلقي بها خطبهُ ولو كان في بعض الفاظهِ شيءٌ من الغموض . وهو من املك الناس لزمام لغتهِ واقدرهم على استحضار الفاظها وصوغ تراكيبها فترى كلامهُ يتدفق كالسيل وكل عبارة منهُ مصوغة محكمة كأنها مفرغة في قالب الاعجاز لا يتلعثم لسانهُ ابداً الاَّ اذا غلبتهُ عواطفهُ . يشرع في خطبتهِ حالما يرقى منبر الخطابة ولا يقف لحظة مدة ثلاثة ارباع الساعة الى ساعة ونصف ومتى انتهت الخطبة وفرغ منها وقف بغتةً كما ابتدأ ونزل وانصرف حالاً ولكن خطبتهُ تكون كافية وافية في موضوعها لا اكثر منها ولا ارق ولا احكم في ادلتها واقيستها واتساقها وانسجامها

تذاكرت مرةً مع الاستاذ كوسر الذي خلف تريتشكي في تدريس التاريخ الالماني وانتقدت ما رأيتهُ فيهِ من التعرُّض على الاجانب فقال «نعم ولكن لا تنسَ فصاحتهُ» . فان كانت فصاحة اللغة تكفّر عن التعرُّض والميل مع الهوى فتريتشكي فوق كل انتقاد

كان الجد دأبهُ في كل اقوالهِ لا يهزل ولا يتبسَّم ولو دفعت قوارص كلماتهِ السامعين الى الاغراب في الضحك لان اهميَّة موضوعهِ كانت تملكهم كل قوى عقلهِ

لا شبهة ان تعاليمهُ تسلطت على الالمان فقد تفاطر عليهِ التلامذة عاماً بعد عام وتبع منهم القواد والساسة والاداريون والصحافيون . وكان اقرانهُ الاساتذة يحضرون خطبهُ العمومية ويجلسون على جانبيهِ كأنهم حرَس شرف لهُ حتى اذا اتمَّ خطبتهُ صمَّت الآذانَ اصواتُ التصفيق والهتاف وهذه مزايا لا ينالها الاَّ نوابغ الخطباء وكان لخطبهِ تأثير شديد ينتشر في طول البلاد وعرضها لكن هذا التأثير لم يكن نافعاً دائماً اذا تناول تلامذتهُ كل ما قالهُ كقضايا مسلَّمة ولم يمحصوهُ لانهُ كثيراً ما كان يمزج السم بالدسم . قال صديقي الابر المرحوم الدكتور فردرك بولسن وهو من اقرانهِ الذين كانوا يعجبون بهِ ويخالفونهُ في آرائهِ «انهُ كان لهُ التأثير الاعظم في نفوس الناشئة وبلاغتهِ وقوة حجتهِ اقنع العقول ان الدولة قوةٌ والحرب غرضها الاول ووظيفتها الجوهرية» فان جنت المانيا الضرر من ذلك فاللوم على تريتشكي معلمها

لكن تعاليم تريتشكي كانت من اقوى الدوافع الى طلب المعالي والاستبسال في حب الوطن ولو كانت كثيرة العيوب من حيث قلبها للحقائق التاريخية وتحاملها على غير الالمان من الامم . كان يطرف في احكامهِ فوق ما يحق لمن يعلِّم اناساً ذاقوا طعم المعارف ولكن غيرتهُ وفصاحتهُ ومقدرتهُ على التعبير عمَّا تخيلهُ عقول الالمان وتشتاهُ نفوسهم كل ذلك جعلهُ قبلتهم التي يتجهون اليها وقدوتهم التي يقتدون بها . وما من احد من معاصريهِ بلغ شأوهُ في غرس محبة الوطن في نفوس الالمان . ولقد كان متعصباً لوطنهِ تعصباً اعمى لا يرى صلاحاً في غيرهِ

لكنهُ كان مخلصاً غير مراءٍ ولا مداجٍ لا يقول بلسانهِ الاَّ ما يشعر بهِ في قلبهِ لان محبتهُ لوطنهِ كانت المحور الذي تدور عليهِ آمالهُ وتنبعث منهُ اقوالهُ

لما ألقَ خطبهُ في تاريخ المانيا سنة ١٨٨٧ كنتُ حاضراً بين تلامذتهِ وكانت الافكار حينئذٍ مضطربة لتوقع الحرب مع فرنسا . وكان بسمارك قد خطب خطبة من اشهر خطبهِ في مجلس النواب ذكر فيها بنود المحالفة مع النمسا وطلب زيادة الجيش والاَّ فالبلاد في خطر مبين . فاشار تريتشكي الى ما يحتمل وقوعهُ من الحرب وقال « انا في زمن كثير القلاقل وقد تكون الحرب على الابواب ولا بدَّ منها سواء ثبتت بعد بضعة اسابيع او تأجلت بضع سنوات فلا تنسوا ايها الشبان كل ما قلتهُ لكم عن مجد بلادكم فان محبة الوطن اسمى العواطف واشرفها » وهنا فاضت الدموع من عينيهِ ثم قال « واذا دعي احد منكم للذهاب الى الحرب قبل ان نجتمع ثانيةً فليبقَ في بالهِ انهُ يحارب لاجل وحدة الامبراطورية الالمانية ضد روح الفوضى المنتشرة في هذه الايام » ثم خنقتهُ العبرات واجهش في البكاء اما نحن الحضور فتولانا الوجوم وجعل بعضنا ينظر الى بعض بوجوهٍ باسرة والذين يعرفون طباع الالمان يدركون تأثير هذا الكلام فيهم ولا يزال تأثيرهُ في نفسي الى الآن

اني اقصد بهذه السطور اظهار الحقيقة لا الانتقاد على اعظم محب لوطنهِ ولا انا من الذين يعيبون على تريتشكي ويقولون انهُ كان شرًّا محضاً . نحن كأمَّة ليس لنا ما نشكرهُ عليهِ ولكن الذين اتيح لهم ان يسمعوا خطبهُ مثلي من ابناء جنسي كانوا اذا سمعوا تعظيمهُ للامة الالمانية يطبقون كلامهُ على امتهم حاسبين انها احق بهِ من الالمان لانهُ ان كانت المانيا التي نفخت نسمها كثيراً ولم تنفع سواها الاَّ قليلاً حريَّة بهذا المدح والاطراء فانكلترا الامة التي ولَّدت امماً وربَّت شعوباً التي انشأت العمران الحديث وبذلت نفسها لاجل العالم احرى بهذا المدح وهذا الاطراء

لم ينصف تريتشكي انكلترا في كلامهِ عنها وكان احياناً يخطئ قوانين المجاملة ولكن انكلترا ارحب صدراً من ان يسيئها قول منتقد ولو قصد الوقيعة . ثم ان رأيهُ في انكلترا مكتسب من رأي قومهِ والناس لا يحسنون الظن بمن يحسدونهُ او يغارون منهُ . وغنيٌّ عن البيان ان قولهُ فيما حملنا على ان نزيد تعلقاً بوطننا وافتخاراً بما فعلتهُ امتنا لخير العالم

وقد مضت السنون ولكنها لم تزل من نفسي دلائل الاعجاب باستاذي هنريك فون تريتشكي والشكر لهُ واذا طُلب مني ان انتقدهُ وددت ان تكون نار الانتقاد عليهِ برداً وسلاماً